

الصَّابئة المندائيون في التاريخ؛ من فلسطين إلى إيران

بمادر قيم^١

تاريخ القبول: ١٤٣٢/١١/١٠

تاريخ الوصول: ١٤٣١/١٢/٢٢

يعدُّ موروث الصَّابئة المندائيين بخلقيتهم التاريخية الممتدة، ضمنَ الجماعات الدينية المعروفة في الثقافة والحضارة الإسلاميتين، وقد جعلهم القرآن في مصافِّ أهل الكتاب. تُظهِر الأحداث التاريخية المتصلة بحياتهم الدينية والاجتماعية في فلسطين والواردة في تقاليدهم الشفهية ونصوصهم المقدسة، أنَّ فلسطين كانت منطلقهم الأول.

إنَّ هجرة الصَّابئة إلى بلاد ما بين النهرين عقبَت عوامل خارجية، بما فيها غزو القوى الخارجية، وعوامل داخلية والصراع مع اليهود. ومن ناحية أخرى فقد لعب التسامح الديني من قبل الحكومات الأخمينية والأرشاقية دوراً إيجابياً في مواصلة حياتهم الدينية بعد ما أقاموا في بلاد ما بين النهرين التي كانت تابعة للإمبراطوريات القديمة بدءاً بالأخمينية وانتهاءً بالسَّاسانية، إذ يسرُّ ذلك مناخ التسامح نزوح الصَّابئة إلى الأقاليم الواقعة جنوبي غرب إيران (خوزستان). وقد أمضى الصَّابئة حياة دينية واجتماعية مليئة بالتقلبات والشدائد منذ اجتيازهم الحدود الجغرافية الإيرانية مستوطنين خوزستان إلى يومنا هذا (٢٠١٠م). أمَّا في السنوات الأخيرة بعد اعتبار هذه الفترة الدينية ضمنَ أهل الكتاب من قبل سماحة آية .. الخامنئي (مدَّ ظله)، فقد فتح فصل جديد للتواجد التاريخي الصَّابئي في إيران ولممارسة حياة دينية واجتماعية على ساحة وادعة. إنَّ هذه الدراسة الاستكشافية الماثلة بين أيديكم بتوجُّه تاريخيِّ بحث وبحث تصحيحيٍّ للمصادر التاريخية تسعى إلى تقديم صورة واضحة عن الصَّابئة وتعريف جديد للمندائيين يميِّزهم عن عبدة الشَّمس.

الكلمات الرئيسية: أهل الكتاب، الصَّابئة المندائيون، النبيُّ يحيى (ع)، فلسطين، بلاد ما بين النهرين، خوزستان.

"الصَّابِئَةُ" لُغَةً وَدَلَالَةً

إنَّ فهم مفردة فهمًا دقيقًا وتطبيق شحنتها الدلالية على ظاهرة ومدلول تاريخيين يمكنان الباحث في تحليله لمغزى موضوع ما من السير قريباً من الحقيقة. فبعد التَّمَعُّن في المصادر القديمة والحديثة، يمكننا أن نذعن بعدم اتِّفَاق الدَّلالتين اللُّغويَّة والإصطلاحية لكلمة «الصَّابِئَةُ» في اللُّغتين العربيَّة والآرامِيَّة :

الف- جاء في اللُّغة العربيَّة «صَبَأً»، «يَصْبَأُ»، «صَبَأً» و«صَبُوءاً» أي «خَرَجَ من دينٍ إلى آخر». (انظر: سعيد الشرتوتوي، ١٤٠٣ق، ٦٢٨، خليل جُرِّ، ١٣٨٦ ش؛ ٢/١٣٠٥ فريد وجددي، ١٩٧١م؛ ٤/٢٢٦) أما النُّطَاق الدَّلالي فواسع إذ يشمل كلا الجانبين السَّلبيِّ: الميل من التَّوْحِيد إلى الشُّرْكَ. والإيجابيِّ: الميل من الشُّرْكَ إلى التَّوْحِيد: فقد أورد لفيف من كُتَّاب الملل والنحل هذا المعنى العامَّ أي «الخروج من ديانةٍ إلى أخرى». (انظر: العلويُّ ١٣٧٦، ص ٣٦، ابن الجوزي، ١٤٢٦ق، ص ٦٨) وبإمكاننا أن نقدِّم مصاديق تاريخية كثيرة لكلا الجانبين السَّلبيِّ والإيجابيِّ مستخلصَةً من النُّصوص التَّاريخيَّة، فعلي سبيل المثال هناك نموذجان للجانب السَّلبيِّ من دلالتَي «الصَّابِئَةُ»، الأوَّل: هو انحراف أبناء قبايل عن التَّوْحِيد إلى الشُّرْكَ بواسطة نحتهم الأصنام على هيئة إنسان وعبادتهم إيَّاهَا إذ أصبح ذلك مبدأً للوثنيَّة.

والثَّاني: تبعاً للأوَّل ظهور أوْثان (ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر) وتألبيها في المجتمع الجاهليِّ، ويقال إيَّها كانت على هيئة أناس صالحين قد عاشوا في عصور سابقة.

فهذان نموذجان للدَّلالة على الانحراف والميلان عن التَّوْحِيد نحو الشُّرْكَ. إذ بعث الله سبحانه في العصور اللاحقة النَّبيَّ إدريس (ع) لهداية النَّاس ودعوتهم نحو التَّوْحِيد. (الكلي، ١٣٨٥، ١٤٨-١٤٦) وأمَّا الجانب

الإيجابيِّ للصَّابِئَةُ فمن الممكن أن نعدَّه مرادفاً «الحنيفيَّة» و«التَّحْنُف» فقد جاء في اللُّغة العربيَّة أن «حَنَفٌ» يعني «انحرفَ» و«مالَ»، «ميلاناً من الوثنيَّة إلى التَّوْحِيد». (انظر: خليل جُرِّ ١/٨٦٧، محمَّد علي مختار، ١٤٠٤ق؛ ١٦٤)

كان أبو قيس صرمة بن ابي أنس من بني النَّجَّار وخالد بن سنان من بني عبس، وبعْدَ أن مَنَّ تحنَّفوا أي مالوا قبل بعثة نبيِّ الإسلام (ص) من الوثنيَّة إلى دين إبراهيم (ع). (العلوي، ١٣٨٥ش، ٢٧) لعلَّ هذا الأمر هو الَّذي حثَّ البعض إلى أن يعتبروا بالخطأ الصَّابِئَةُ ففةً من المشركين قد مالت من الشُّرْكَ إلى التَّوْحِيد بعد تحوُّل في عقيدتها وذلك قبل ظهور الإسلام ومبادئه الأصيلة (انظر: الكلي، ١٣٨٥ش، المقدمة؛ ص ٧) وهذه الففةُ في الأصل: "الحنفا" وليس "الصَّابِئَةُ". هي الشَّهْرستانيِّ باختياره للجانب السَّلبيِّ لدلالة "الصَّابِئَةُ": «أن الصَّابِئَةُ في مقابلة الحنيفيَّة»، أي تعارضها. ثمَّ يضيف «وفي اللُّغة صَبَأُ الرَّجُلُ إذا مالَ وزاغَ؛ فبحكم ميل هؤلاء عن سَنَنِ الحَقِّ وزيعهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصَّابِئَةُ». (الشَّهْرستاني، ١٤٢٢ق؛ ٢٠٩) كما قام فريق من الكُتَّاب المسلمين بالبحث عن سبب تسميتهم بالصَّابِئَةُ باستدلالات دلالية أخرى تبدو أقلَّ أهميَّة. فذهب الحميريُّ إلى أن كلمة الصَّابِئَةُ مأخوذة من شخصيَّة أسطوريَّة تُدعى «صاب بن طاط بن حنوخ» وقد كان عالماً في الحكمة والفلسفة والنجوم. وكان أوَّل من قام بتشييد هيكلٍ في بابل أصبح كاهناً له ويدعى "بكومن" أي العالم الكبير فلهاذا عُرف أبناؤه بالصَّابِئَةُ. (الحميري، ١٩٨٤م؛ ١٩١) قد اعتقد البعض أن كلمة الصَّابِئَةُ مأخوذة من لفظة الصَّيِّ التي وردت في القرآن حيث قال سبحانه: وآتيناه الحكم صبيّاً (سورة مريم، الآية: ١٢) وقد نزلت في النَّبيِّ يحيى (ع) الَّذي تعدُّ الصَّابِئَةُ من أتباعه. (انظر: الحسيني

فبعد التَّدقيق في هذه الرِّوايات التَّاريخية يمكننا أنَّ نستنتج أنَّ عبادة النُّجوم والكواكب كانت جذريةً في عصور ما قبل التَّاريخ ونقطة بداية الانحراف الدِّيني بين قومٍ وقومٍ آخر وبين أمةٍ وأمةٍ أخرى تبدو متضاربة متفاوتة. أنَّ إطلاق كلمة «الصَّابِئَةُ» على هذه الأقوام والأُمم بشكل عامٍّ يتلاءم مع المفهوم السَّلبي للكلمة في اللُّغة العربية أي «الميلان عن التَّوحيد إلى الشُّرك» وهذا الإشتراك في الدَّلالة قد أذى ببعض المؤلِّفين نحو الاعتقاد بأنَّ مَخذ الأُمم هو فنة الصَّابِئَةُ، في حين أنَّ قاسمها المشترك الوحيد يكمن في «تقديسها للنُّجوم وعبادتها لها خاصَّةً منها الشَّمس والقمر» وذلك تمخُّصاً عن الدَّور المؤثِّر الذي تؤدِّيه النُّجوم والكواكب في حياة البشر. (في ما يتعلَّق بتأثير النُّجوم والكواكب في حياة الإنسان وميلانه نحو عبادتها) انظر: المسعودي، ١٣٧٨، ١/٥٨٧).

نذكر لذلك أمثلة: أوَّلها: اعتقاد الهنود بأنَّ سبعة كواكب سيَّارة تدبُّر شُؤون حياتهم. (اليقوي، ١٣٧٤، ١١٠) وثانيها: ميلان المصريِّين القدامى من التَّوحيد إلى الشُّرك بعبادتهم «رع» الشَّمس وهو كبير آلهتهم. (انظر: جيمس هاكس، ١٣٤٩ش، ص ٥١٤) وثالثها: عبادة العرب آلهة سماويِّين منهم الشَّمس التي كانت تحظى عندهم بمزلة كبيرة وهذا بجانب عبادتهم آلهة أرضيِّين وجنَّاً. (بحي الشَّامي، ١٩٩٣م، ١٠٢) أشار ابن خردادبه إلى قلعة في اليمن كُتب عليها بالخطِّ الحميريِّ «هذا ما بناه شمريهريش يعون سيِّده الشَّمس». (ابن خردادبه، ١٨٨٩م، ١٤٥) ومن الضَّروريِّ أنَّ نتذكَّر هنا أنَّ عبادة الشَّمس كانت مختصَّة بقبائل حمير اليمنيَّة وقد جاء في تاريخ الأساطير أنَّ سبأ بن يشجب بن يعرب كان يُدعى «عبد الشَّمس». (المسعودي، ١/٤٣٧) فكانت كنانة تعبد القمر، وميسم الدَّبْران ولخمْ وجُذامُ المشتريِّ وطِيءٌ سهيلاً وقيسُ الشَّعريِّ

الشيرازي، ١٣٨٤، ٤٣) ب - كلمة «الصَّابِئَةُ» في اللُّغة الآرامية^١: تقسَّمت اللُّغة الآرامية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد إلى عدَّة فروع منها: المندائية والعبرية والبالمرية (التدمرية) والسريانية والنبطية والعربية (انظر: ألبرت، ١٣٨١ش؛ ١١٥، جان جورج، ١٣٨٢، ٤٨) اشتُقَّت لفظة الصَّابِئَةُ في اللُّغة المندائية من المادَّة «صبا» أي «التعميد» و«الإرتماس في الماء» (Kurt Rudolph, 2011,P.1)، ولهذا يطلق الصَّابِئَةُ على طقوس التعميد في الماء لفظة «مصبتا». (السباهي، ١٩٩٦م، ٣٢) في حين أنَّ الكُتَّاب المسلمين في تعريفهم لأحوال الصَّابِئَةُ يؤكِّدون على الدَّلالة العربية دون النَّظر إلى الدَّلالة الآرامية.

الصَّابِئَةُ وعبادة النُّجوم

إنَّ رواة التاريخ قد اعتقدوا أنَّ الفصائل البشريَّة جميعها تنتمي مع كلِّ تشعباتها اللُّغويَّة وتبايناتها الدِّينية إلى سبع أُمم قديمة هم: الإيرانيُّون والكلدانيُّون واليونانيُّون والأقباط والأتراك والهنود والصينيُّون وكان أصل هذه الأُمم جميعها ينحدر من الصَّابِئَةُ الذين كانوا يعبدون الأصنام بوصفها مظهرًا لأشخاصٍ فلكيَّة. (ابن العربي، ١٣٧٧ش، ١) كما أشار المسعوديُّ إلى مجموعاتٍ شتَّى من الصَّابِئَةُ نحو: صابئة الكلدانيِّين والصَّابِئَةُ الصَّينيِّين ويُدعون سُمْنيه والصَّابِئَةُ اليونانيِّين والصَّابِئَةُ المصريِّين وصَّابئة حرَّان، وكلُّها تعبد الأجرام السَّماويَّة. (المسعودي، ١٤٢١ق، ١٥٤-١٥٣) وابن العربيِّ في الفصل المتعلِّق باحتلال الإفرنج (الروم الغربيِّين) لبلاد اليونان يذكر: «أنَّ روما كانت عاصمة جميع الرُّوم إلى أنَّ اعتنق قنسطانطينوس ابن هيلانة الدِّيانة المسيحيَّة تاركاً ديانة الصَّابِئَةَ (عبادة النُّجوم) ثم بنى مدينة بيزنطة». (ابن العربي، ١٣٧٧ش، ٨٥)

هناك إشارات صريحة لبعض الكتب المقدسة عند الصابئة المندائيين إلى أورشليم وتاريخها تدعونا جميعها إلى أن ندعن بأن فلسطين محطتهم الأصلية، منها أن أورشليم شيدت بعد طوفان نوح (ع)، وأنها مبعث ثلاثمة وستين نبياً، وأن زكرياً وزوجته حظيا فيها بمنزلة رفيعة، وأن يحيى (ع) آخر أنبياء الصابئة قد ولد فيها، وأن أكبر الصدمات بينه وبين اليهود قد وقعت فيها، وأخيراً أنه التقى فيها بعيسى المسيح (ع) على ضفة نهر الأردن حيث قام بتعميده. (شهرية بيت مندا، دي ١٣٨٥، ٨) بناءً على هذا يمكننا أن نقر أن ما قاله هيكيبيوس Hegesippus (المتوفى ١٨٩م) عن وجود طائفة في منطقة البحر الميت الفلسطينية كانوا يقومون في مياهه بالتعميد تدعي «مصبتين» (السباهي ١٩٩٦م، ٣٣) أقرب إلى الواقع من الرأي الضعيف للكاتب الحديث جولوس ليوي Julius lewy الذي اعتقد أن الصابئة قد استقرت بداية في واحة التيماء شمالي الحجاز. (م. ن، ٣٢) لأنه اعتمد على ماجاء في العهد العتيق فذهب إلى أن كلمة الصابئة مشتقة من كلمة «شبا» وهم من ذرية النبي إبراهيم (ع) لزوجة قطورة (انظر: العهد العتيق والحديد، ١٣٨٠، تكوين ٣-١) فرفضاً لهذا الرأي يكفينا أن نعلم أن العرب يطلقون لفظة «التيماء» على أرض قفرة تخلو من المياه، (انظر: ياقوت الحموي، لاتا؛ ٢/٤٧١) وأن أرضاً كهذه خالية من المياه، خاصة الجارية منها التي يعتبرها المندائيون أهم وسيلة للتعميد، لا يمكن أن تكون مستقر لهم. علاوة على هذا فقد ورد في النصوص التفسيرية للعهد العتيق أن مفردة «شبا» العبرانية هي نفس «سبا» اليمينية وطن الملكة الشهيرة بلقيس (انظر: جيمس هاكس، ١٣٤٩ ش، ٥١٤). إن نزوح الصابئة المندائيين من فلسطين نحو بلاد ما بين النهرين قد حدث في ظروف قسرية قد أثارها مجموعة من

وأسد عطار. (ابن العبري، ١٣٧٧ ش، ١٢٦) وعلى أساس هذه المصادر القديمة نرى أن كتاب العرب المعاصرين يعدون من تعبد الأجرام السماوية في العصر الجاهلي صابئة. (أبوخليل، ١٤٢٥ ق، ٢٦، الشامي ١٩٩٣م، ٢٢).

الصابئة من فلسطين إلى بلاد ما بين النهرين

يتعدّر من خلال مدونات المندائيين المقدسة وتقاليدهم الشفهية استخلاص صورة حلية موحدة لمنطلقهم الأول. فبناءً على ما سبق، تقدّمت كل من الهند ومصر وفلسطين بوصفها مناطق ظهورهم الأولى. ويعتقد الصابئة أن آدم (ع) قد هبط في الهند قبل ٢٤٥٣٧٩ عاماً وهو أول من تعمّد بيد «ملكها هيبيل زيو» (الملاك جبرئيل). فلهذا يعتبرون الهند أقدم منطلق لهم. (شهرية بيت مندا، شهر دي سنة ١٣٨٥، هـ. ش ٥، «تقويم صابئين مندائي حوزستان، ٨٩- ١٣٨٨ الإيراني. ٣١-١٤٣٠ ق، ٢٠١٣-٢٠١٢ يجايي، ٤٤٥٣٧٩ ميلاد حضرت آدم (ع)) كما أن الروايات الشفهية تشير إلى تواجد المندائيين في مصر القديمة. (عربستاني، لاتا، ١٩) ولا تحظى هذه الموروثات التاريخية المندائية بخلفية داعمة وطيدة موثوق بها في حقل التدوين للتاريخ الإسلامي. بل تمت فقط الإشارة باختصار إلى هبوط آدم (ع) في الهند وهي إشارات ضعيفة عابرة. (الطبري، ١٤٢٢ ق، ١/٧٩/اليقوي، ١٣٧٤، ٤/١، المسعودي، ٢٥/١) يذكر المسعودي في رواية أخرى أنه: «لما ولدت أشباع ابنة عمران وهي أخت مريم أم المسيح، يحيى بن زكرياً عليهما السلام، هربت به من بعض الملوك إلى مصر، فلما صار رجلاً بعثه الله عزّ وجلّ إلى بني إسرائيل». (المسعودي، ١/ ٥٥) وهذه الرواية إن قبلناها فهي أيضاً تتعلّق إلى ما قبل بعثة النبي يحيى (ع).

زوجته غير الشَّرْعِيَّة. (ناس، ١٣٨١ش، ٨٩-٨٦) إِنَّ التَّوَاطُؤَ بَيْنَ حَكَّامِ بَيْتِ المَقْدِسِ وَاليَهُودِ فِي اسْتِصْالِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّنِ بِحِجِّي (ع) وَعَيْسَى (ع) (فِي شَأْنِ عَيْسَى (ع) وَعُرُوجِهِ انظُر: ابن العبري، ١٣٧٧ ش، ص ٨٩ - ٨٦) أَدَّى إِلَى تَفَرِّقِهِمْ فِي بِلْدَانِ العَالَمِ وَمِنْهُ نَزُوحُهُمْ نَحْوَ بِلَادِ مَايِنِ النَّهْرَيْنِ. يَقُولُ جَانِ نَاسٍ: «بَقِيَ الكَثِيرُ مِنْ أَتْبَاعِ بِحِجِّي (ع) الأَوْفِيَاءِ الَّذِينَ وَاصَلُوا تَعَالِيمَهُ وَسَارُوا عَلَى دَرَبِهِ إِذْ لَقِيَ الحِوَارِيَّ بُولَسَ بَعْدَ ثَلَاثِينَ عَامًا اجْتِمَاعًا لِأَصْحَابِهِ فِي مَدِينَةِ أَفْسُسٍ^٢» (ناس، ١٣٨١ ش، ٥٨٥)

الصَّابِئَةُ المِندائِيَّةُ فِي النُّصُوصِ الإِسْلَامِيَّةِ

إِنَّ أَوَّلَ وَأَكْمَلَ وَأَوْثَقَ وَثِيْقَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ ذُكِرَ فِيهَا اسْمُ الصَّابِئَةِ هُوَ الكِتَابُ السَّمَاوِيُّ لِلْمُسْلِمِينَ أَي: القُرْآنُ الكَرِيمُ. حَيْثُ وَرَدَ فِيهِ ذِكْرُ الصَّابِئَةِ فِي ثَلَاثِ سُوْرٍ. وَبِنَاءٍ عَلَى مَا جَاءَ فِيهَا أُعْتَبِرَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ. أَنَّ أَوَّلَ ذِكْرِ لَهَا وَلِمُسْتَقَرِّ أَتْبَاعِهَا الجِغْرَافِيِّ فِي الحَقْلِ التَّوْبِينِيِّ لِلتَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ جَاءَ فِي نِصُوصِ تَعُودِ إِلَى القَرْنِ الثَّلَاثِ المِجْرِيِّ. وَبِمِمْكِنَا بَعْدَ التَّدْقِيقِ فِي رِوَايَاتِ النُّصُوصِ التَّارِيخِيَّةِ لِهَذِهِ الحِقْبَةِ أَنَّ نَسْتَكْشِفُ أَفْقًا جَلِيًّا عَنِ حَقِيقَةِ الصَّابِئَةِ التَّارِيخِيَّةِ تُمَيِّزُ المِندائِيَّةَ التَّعْمِيدِيَّةَ عَنِ الحِرَانِيَّةِ عِبْدَةَ النُّجُومِ.

ألف: الصابئة الحرانيون

كَانَتْ هَذِهِ الفِئَةِ فِي الأَصْلِ تَعْبُدُ النُّجُومَ وَالكَوَاكِبَ فِي مَدِينَةِ حِرَّانَ وَتَعُودُ بِنَسَبِهَا إِلَى جُذُورِ كِلْدَانِيَّةٍ عَرَفَتْ «الحِرَانِيَّةَ الكِلْدَانِيَّةَ» (ابن التَّدِيمِ، ١٣٤٣ش، ٥٦٥) يَقُولُ المِسعُودِيُّ فِي ذِكْرِهِ لهُؤُلَاءِ الحِرَانِيِّينَ «وَالَّذِي بَقِيَ مِنْ هِيَآكِلِهِمُ المِعْظَمَةُ فِي هَذَا الوَقْتِ زَمَنُ المِسعُودِيِّ وَهُوَ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ - بَيْتٌ لَهُمْ بِمَدِينَةِ حِرَّانَ بِمِمْعَلِيْتِيَا فِي بَابِ الرِّقَّةِ يَعْرِفُ بِهِ "مِمْعَلِيْتِيَا" وَهُوَ هِيَآكِلُ آزَرَ أَبِي إِبرَاهِيمَ الحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُمْ.» (المِسعُودِيُّ،

العوامل الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ. مِنْ العَوَامِلِ الخَارِجِيَّةِ مِمْكِنَا أَنَّ نَبُوَّهُ هُنَا إِلَى هِجْمَاتِ القُوَى الأَجْنَبِيَّةِ عَلَى أُورُشَلِيمَ، وَأَوَّلَاهَا هِجْمَةُ بِحِجْنَصَرَ (نَبُوخَذَنْصَرُ) وَإِجْلَاؤُهُ أَهْلَ فِلَسْطِينَ إِلَى بِلَادِ مَايِنِ النَّهْرَيْنِ فِي القَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ المِيلَادِ. (اليَعْقُوبِيُّ، ٧٨/١، الطَّبْرِيُّ، ٣٢٣/١، ابن العبريِّ ١٣٧٧ش، ٥٦) وَمِمَّنْ سَبَاهُمْ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى بَابِلَ جُمُوعَةٌ مِنَ الصَّابِئَةِ المِندائِيَّةِ. (البِيروْنِيُّ، (لَاتَا) ٣١٨) وَأَمَّا الهِجْمَةُ الخَارِجِيَّةُ الأُخْرَى عَلَى أُورُشَلِيمَ فَقدِ قَامَتْ تَبْتِوَسَ (تَبْتِطُسُ) وَبِأَمْرِ مِنْ وَالدِهِ قِيسَرَ الرُّومِ سِياسِيَانُوسَ (فِلسِبيَانُوسُ) عَامَ ٧٠ لِلْمِيلَادِ. (ابن العبريِّ، ١٣٧٧ش،

ENCYCLOPAEDIA looklex, 2011, ٩١

(P.2) هُنَاكَ هِجْمَاتُ رُومِيَّةٍ أُخْرَى عَلَى أُورُشَلِيمَ حَدِثَتْ عَامَ ١٣٢ المِيلَادِيِّ بِأَمْرِ مِنْ هَادْرِيَانُوسَ (١٣٨ - ١١٧ م) عَقِبَهَا تَخْرِيْبٌ كَامِلٌ لِلْمَدِينَةِ وَتَقْتِيلٌ شَنِيعٌ لِأَهْلِهَا وَتَشْرِيدٌ عَدِيدٌ مِنْهُمْ. (ابن العبريِّ، ١٣٧٧ش، ٩٤) وَأَمَّا العَوَامِلُ الدَّاخِلِيَّةُ لِهِجْمَةِ الصَّابِئَةِ المِندائِيَّةِ يَعُودُ إِلَى مِطَارِدَتِهِمْ وَإِذْيَاتِهِمْ بِصِفَتِهِمْ أَتْبَاعًا «بِوَحْنًا المِعمِدَانِ» أَي النَّبِيِّ بِحِجِّي (ع). وَعَلِينَا أَنَّ نَفَرًا أَنَّ العِنِصَرَ اليَهُودِيَّ حَسَبَ رِوَايَاتِ النُّصُوصِ المِقدَّسَةِ لِلْمِندائِيَّةِ لَعِبَ دُورًا مِهمًّا فِي مِطَارِدَةِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ بِحِجِّي (ع) أَي الصَّابِئَةِ بَعْدَ مِقتَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَقْدَمِ المِصَادِرُ التَّارِيخِيَّةُ لِأَ المتَقَدِّمَةِ مِنْهَا وَلَا المتَأخَّرَةِ صُورَةَ لِلأَحْدَاثِ المتَعَلِّقَةِ بِالنَّبِيِّ بِحِجِّي (ع). (عَنْ رِوَايَاتِ النُّصُوصِ المِقدَّسَةِ لِلْمِندائِيَّةِ انظُر: العَرِيسْتَانِيُّ، ١٣٨٣ ش، ٢١) وَأَمَّا المِصَادِرُ التَّارِيخِيَّةُ فَتَوَكَّدُ مِقتَلَهُ (ع) عَلَى يَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. (الدَّبْيُونِيُّ، ١٣٦٤؛ ٦٧، المِسعُودِيُّ، ٥٥/١) وَيَصْرُحُ ابنُ العبريِّ أَنَّ بِحِجِّيَ قَاتَلَ النَّبِيَّ (ع) هِيَ المِلكَةُ هِيرُودِيَا. (ابن العبريِّ، ١٣٧٧ ش، ١١١) وَأَمَّا المِصَادِرُ المِعَاصِرَةُ فَتَوَكَّدُ عَلَى أَنَّ قَاتَلَهُ (ع) هُوَ هِرْدُوسُ أَنتِيْبَاسِ مِلكِ الجَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِ فِلَسْطِينَ وَقدِ كَانَتْ المِلكَةُ هِيرُودِيَا

زيهم أنذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرّة جدّ سنان بن ثابت، فأنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم؟ من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانيّة. فقال: أنصاري أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فمحموس أنتم؟ قالوا: لا. قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فمحمجوا في القول. فقال: فأنتم إذا الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الراس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم. فقالوا: نحن نوذي الجزية. فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في كتابه، ولهم كتاب وصالحهم المسلمون على ذلك، فأنتم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، فاختاروا الآن أحد الأمرين، إمّا أن تنتحلوا دين الإسلام أوديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا قتلتم عن آخركم. فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه فإن أنتم دخلتم في الإسلام، أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه والا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم. ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيّروا زيهم وحلّقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية. وتنصّر كثير منهم ولبسوا زنانير. وأسلم منهم طائفة، وبقي منهم شذمة بحالمهم وجعلوا يبتالون ويضطربون، حتّى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه، فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مال لهم فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به. وقضى أنّ المأمون تُوفّي في سفرته تلك بالبدندون، وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنّه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصابئة...» (ابن النديم، ١٣٤٣ش، ٥٤٨).

يصرّح أبوريحان البيروني دون نقل هذه الحكاية أنّ

١/٥٩٩-٥٩٨) لعلّ هذا الأمر كان الداعي إلى أن تذكر حرّان بوصفها أشهر مركز للوثنيّة السريانيّة. (أحمد أمين، لاتا؛ ١٣٠) وكان للصابئة الحرانيّين أعلام أو بتعبير آخر أنبياء من أشهرهم: أرابي واغاذيمون وهرمس بالإضافة إلى سولون جدّ أفلاطون فيلسوف الأُمَّة. (انظر: ابن النديم، ١٣٤٣ش، ٥٤٥/ البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠/ المسعوديّ، ١٤٢١ق، ١٥٤) وقد كان الحرانيّون قبل تسميتهم بالصابئة يُدعون «الحنفاء» (البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠/ البيرونيّ، (لاتا ٣١٨) و«الوثنيّين» و«الحرانيّين». (البيرونيّ، ٣١٨) وقد اعتنق بعض من ملوك اليونان والروم ديانة الصابئة (البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠) ويذكر البلاذريّ في معرض كلامه عن فتح مدن الجزيرة (شماليّ العراق) بيد عياض بن غنم، طائفة من عبدة النجوم والكواكب يدعوه «الحرانيّة»: «فلما نزل بها بعث إليه الحرانيّة من أهلها يعلمونه أنّ في أيديهم طائفة من المدينة ويسألونه أن يصير إلى الرّوها، فما صالحوه عليه من شيء فنعوا به وحلّوا بينه وبين النّصاري حتّى يصيروا إليه، وبلغ النّصاري ذلك فأرسلوا إليه بالرّضى بما عرض الحرانيّة.» (البلاذريّ، ١٤٢١ق، ١٧٥-١٧٤) وبسبب اتّخاذ عبدة النجوم طريقة التقيّة أمام الفاتحين المسلمين فقد ظنّ هؤلاء أنّهم فغات من النّصاري، فهذا الظنّ قد شمل الصابئة المندائيّين لاحقاً. وقد أظهر عبدة النجوم الحرانيّون أواخر القرن الثاني الهجريّ أي عهد خلافة الأمين العباسي (١٩٨-١٩٣ق). ديانتهم (انظر: آدام متر، ١٣٧٧، ٥٣) ثمّ تسمّوا بالصابئة أواخر خلافة المأمون (٢١٨-١٩٨ق). وهذه المعلومة استناداً على مارواه أبو يوسف أيشع القطيعيّ النّصراني، ونقل عنه في كتاب الفهرست: «أنّ المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضرّ يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه النّاس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرانيّين، وكان

الخرنائبين سُموا بالصَّابِئَةَ سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة. (البيروني، (لاتا) ٣١٨) ويبدو أنَّ خطأً كتابياً قد حصل حين استنساخ كتاب البيروني إذ سجلَّ المستسخون (ثمان وعشرين) بدلاً عن ثمان عشرة. على أيِّ حال لسنا هنا بصدد تعديل ما روي بل نستنتج أنَّ تسمية الخرنائبين بالصَّابِئَةَ قد تحققت في ما بعد الإسلام.

ب. الصَّابِئَةُ المندائيون [التَّعميديون]

إنَّ هذه الطائفة كانت في الأصل مجموعة من مهاجرين أجلاهم بختنصر (نوخذ نصر) بعد احتلاله لأورشليم إلى بلاد ما بين النهرين. فاستقروا جنوبيَّ البلاد بشكل مجموعات متفرقة. (م. ن، ٣١٨) كما تركزت أعداد غفيرة منهم أوائل الإسلام في بؤرة جغرافية ما بين صحاري جزيرة العرب والبطيحة (الأصبهاني، ٣١٤؛ ٣١٤) تقع في أقصى الجانب الشرقي لنهر الفرات (المسعودي، ١٤٢١ ق، ٦٣) بين واسط والبصرة (ياقوت الحموي، ٣٥٦/٢) إنَّ المصطلحات الثلاثة «المغتسلة» و«المعدان» و«العباديين» الواردة في النصوص الإسلامية المتقدمة يمكن إطلاقها على الصَّابِئَةَ المندائيين. ويسمِّي ابن النديم صابئة البطائح جنوبي بلاد ما بين النهرين الذين يؤمنون بغسل كل شيء حتى أطمعتهم، "المغتسلة" (انظر: ابن النديم، ١٣٤٣ ش، ٦٠٦) وأمَّا البلاذري فينوه في تقرير عن فتح الجانب الشرقي للفرات بالمعمودية (المعدان) بوصفها ديانة بني تغلب بن وائل. (البلاذري، ١٤٢١ ق، ١٨٢) فهؤلاء من وجهة نظره نصاري وذلك بتسميته إياهم «نصاري بني تغلب» (م. ن، ١٨١) وأمَّا مصطلح «العباديين» فأطلقه ابن النديم على مجموعة من أهل الحيرة. (ابن النديم، ١٣٤٣ ش، ٥٢٤) هو أيضاً كالبلاذري قد وقع بقوله هذا في خطأ آخر، لأنه اعتبر العباديين من ضمن نصاري الحيرة. في حين أنَّ مصطلح "العباديين" كانت تطلق على "الصَّابِئَةَ

من النَّصاري.

وحالات الخلط هذه قد امتدَّت إلى العصور التَّاريخية الحديثة. فمثلاً المستعمرون البرتغاليون عند استيلائهم على البصرة وجنوبي العراق بين العامين ١٦٢٢ - ١٦٠٠ الميلاديين اعتبروا المندائيين طائفة من المبتدعين في الدِّين والمهرطقين (انظر: السباهي، ١٩٩٦ م، ١٠/ مهرداد العربستاني، (لاتا) ٣٤) بعد ذلك كان يُطلق والى القرن التاسع عشر للميلاد عليهم اسم «النصاري اليعيشية».

(Kurt Rudolph, 2011, P.1). أمَّا فقهاء المسلمين فلم يصدروا حكماً موحداً مشتركاً في حقَّ الطائفة المندائية لأنها مسألة اجتهادية في الفقه الاسلامي وتبدو جدَّ طبيعية. وبعد التَّمعن فيها وفي أسباب اختلاف الحكم الفقهي في شأنها يمكننا استخلاص الدَّوافع التَّالية:

١- تشابه الخرنائبين، عبدة النجوم، المندائيين، التَّعميديين واعتبار الفتنين فئة صابئة واحدة. وهذه الحالة كانت تحت الفقهاء على أنَّصاف الصَّابِئَةَ قاطبةً بالشَّرْك.

٢- اعتبار الصَّابِئَةَ فريقاً من النَّصاري وذلك لقيامهم بالتَّعميد في الماء.

٣- تأثر الدِّيانة الصَّابِئَةَ بديانات أخرى خاصة منها: اليهودية، والمسيحية والمجوسية هو الأمر الذي جعلها تعدَّ ضمن هذه أو تلك من الدِّينات.

٤- إدراج القرآن الكريم الصَّابِئَةَ في عداد أهل الكتاب.

وتداركاً للأمر فقد جمع ابن الجوزي وجهات نظر العلماء المسلمين عن الصابئة في عبارات عشر:

١- أنهم قوم بين النصارى والمجوس، ٢- قوم بين اليهود والنصارى، ٣- فئة من النصارى إلا أن كلامهم ألطف من النصارى، ٤- طائفة من المشركين لا كتاب لهم، ٥- يشبهون المجوس، ٦- فرقة من أهل الكتاب يتلون الزبور، ٧- طائفة من أهل الكتاب، ٨- فرقة تصلي نحو القبلة وتعبد الملائكة وتتلو الزبور، ٩- يقولون لا إله إلا الله، إلا أنهم لا يؤدّون الواجبات، ولا كتاب لهم ولا نبي، بيد أنهم يرددون لا إله إلا الله. (انظر: ابن الجوزي، ١٤٢٤ ق. ٦٨)

الصابئة في إيران

بعد فتح قوروش بابل (٥٣٩ ق. م.) تمهدت أرضية ملائمة لمواصلة الصابئة المندائيين حياتهم الدينية داخل حدود فارس السياسية. وتأثرت الديانة الصابئية بالفرق الجوسية (الزرادشتية، والمزدكية والمانوية) وبالديانة اليهودية في المناطق الجنوبية من بلاد ما بين النهرين. (انظر: البيروني، لاتا) ٣١٨) وأيضاً التحاق فاتك والد ماني بالمغتسلة أوائل القرن الثالث الميلادي (آرتور كريستن، ١٣٧٨ش، ١٣٤) وكلها تدل على أن ديانة الصابئة المندائيين قد تعرّضت منذ الأحمينيين حتى الساسانيين لشتى حالات القبض والبسط في عقائدها والتأثير والتأثر بالديانات الأخرى. بناءً على التقاليد الشفهية وروايات الكتب المقدسة عند المندائيين، فقد كان دحولهم أراضي خوزستان واستقرارهم على ضفاف نهر الكرخة في العهد الأرشاقي. (انظر: سبهاني، ١٤٢٧ ق، ٤٤) منذ ذلك العهد إلى سنة ٢٠١٠ م.) وقد قطعت حياتهم الاجتماعية والدينية في خوزستان العديد من التضاريس والتعرجات. وإبداء الآراء

في شأن حياة الصابئة الاجتماعية والدينية داخل إيران طوال الحقب المتقدمة يبدو مستعصياً بسبب شحة المصادر والمعلومات التي يمكن الرجوع إليها. وأمّا ما يتعلّق بتاريخهم المعاصر في المصادر الحديثة فيعتمد غالبه على رواياتهم الشفهية ونصوصهم الدينية التي تحتاج هي أيضاً إلى تمحّص وتأمّل. إلا أننا مضطرون أن نقرّ ثانية بأنّ حياتهم الدينية والاجتماعية قد احتازت منذ الأرشاقيين (٢٢٤م-٢٥٠ق.م) وحتى عصرنا هذا (٢٠١٠، م) العديد من الخطّات.

إنّ التّعسّفات التي مارستها بعض الحكومات والمضايقات التي أبدتها بعض البسطاء في حقّ هذه الجمالية الدينية في خوزستان تُعدّ عاملاً أساسياً لتنتقل أتباعها داخل الإقليم وخارجه. فمثلاً طوال العهد المشعشي (١٣٤٢-٨٤٥ ق) أُشير إلى حالات من مطاردتهم التي أدت بهم إلى التّنتقل من الحويزة نحو مناطق أخرى مثل نُستر وضاف نهر الكارون. (انظر: سبهاني، ١٤٢٧ ق، ١٤٢٧ ق، ٤٥) ثمّ تواصلت الممارسات التّعسفية الحكومية ضدّ الصابئة في تستر طوال العهد القاجاري (١٣٤٤ - ١١٩٣، ق) إلى حدّ الجازر (انظر: العريستاني، لاتا) ٣٤) بالإضافة إلى الممارسات الضاغطة أواخر القرن الثالث عشر الهجري من قبل العامّة لإرغامهم على اعتناق الإسلام. (انظر: شوشتري، ١٣٣١ش، ٧٥) وتبعاً لهذا نزح الصابئة نحو المحمّرة (خرمشهر) والبصرة. (العريستاني، لاتا، ٢٤) ويبدو أنّ هذه الممارسات والمطاردات في تستر كانت أشدّ وأقسى منها في مناطق أخرى. فقد وجد مكان مسمّى بـ "بندِ صبي كُش" أي "سدّ مذبح الصابئة" (السابق، ٣٤): زمن الصابئة أو تقرير محمّد على إمام شوشتري حالياً لا يوجد منهم في تستر وضواحيها حتى شخص واحد. (شوشتري، ١٣٣١ش، ٧٥) وكلاهما يدلّان على حقيقة

هذا الرَّأي. (العربستاني، لاتا، ٣٨) ويعيش حوالي (٥٣٦٨) شخصاً منهم في المدن العراقية وهي: بغداد، والبصرة، والحلَّة، والديوانيه، والتَّاصرية، والعمارة، وديالي، والكوت، والموصل وكركوك. (انظر: حسيني الشيرازي، ١٣٤٨ ش، ٣١) والأهواز اليوم هي المركز المعنوي للصَّابِئَة المندائيين في إيران، لأنَّ (المندي) معبد للصَّابِئَة، قائم في هذه المدينة، وايضاً أعلى معبد للصَّابِئَة موجود فيها. وگتوروا^١ هي المقام المعنوي لهذه الطائفة (انظر: مجلة شهرية بيت مندا، شهر مهر ١٣٨٢، ٢) ويدعي المقام المعنوي هذا (الشيخ جبار طاووسي) ويلقب بـ (گتوروا الكبير) (مجلة شهرية بيت مندا، شهر تير ١٣٨٨، ١٠) ولهذا تُعتبر خدماته الدِّينية السَّابقة في حكم (ريشا إدا) وأما الشَّخص الثَّاني من ذوي المقامات الرُّوحية العليا لصَّابِئَة الأهواز فهو (الشيخ نجاح جهيلي). ويحضر أبناء الطائفة صباح كل أحد عند ضفاف نهر الكارون ليقوموا بأداء طقوس التَّعميد هناك. (انظر: بيت مندا، آذار ١٣٨١، ٣) يمتن مندائيو خوزستان أعمالاً ك: الصَّياغة، وتجارة الذهب، وبرادة الحديد، وسبك المعدن، وأعمالاً في الشركات الحكومية وغير الحكومية طبقاً لتصريح ترميدا سالم جهيلي. ويتمتع المندائيون بمجلس حلّ الخلافات بترخيص حكومي يحمل رقم ٤٤٩ وبمكتب للزَّواج بترخيص رسمي رقم ١١٢. بالإضافة إلى ذلك بغية تطوير هذه الطائفة تُنشر مجلة فصلية "بيت مندا" بترخيص من وزارة الثقافة، بيت العلم والمعرفة الإسلامية. وأما (جمعية السَّيدات) فإنَّها تعدُّ من ضمن التَّنظيمات النسائية التي تقوم مندائيات الأهواز. (انظر: مجلة بيت مندا الشهرية، تيرماه ١٣٨٨، ١٠) كما أن لديهم حالياً جمعية أخرى تُدعى "جمعية الصَّابِئَة المندائيين" يختار أعضاؤها التَّسعة لمدَّة سنتين، ومن مسؤولياتها: تنظيم الصُّفوف

ويبدو أنَّ الصَّابِئَة في الحَمْرَة (خرمشهر) واصلوا بوصفهم أقلية صغيرة حياتهم الإجماعية والدِّينية طوال عهد إمارة بني كعب. (انظر: مصطفى أنصاري، ١٣٨٤ ش، ٢٨) وأما في فترة السَّلالة البهلوية (١٣٩٨ - ١٣٤٤ ق) فقد عانى الصَّابِئَة في إيران حياة التَّجاهل والتَّهميش. (عربستاني، لاتا، ٣٤). لعلَّ بإمكاننا أن نقول إنَّ ألع حقبة تاريخية للصَّابِئَة المندائيين في خوزستان، هي حقبة ما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران (١٣٥٧ش/١٩٧٨م)، إذ أصدر سماحة آية الله العظمي الخامنئي قائد الثورة الإسلامية حكماً بطهارتهم كوفهم من أهل الكتاب وذلك أثناء محاضرات التَّدريس الدِّينية لسماعته في باب الجهاد، وضمن تنقياته في الآيات والروايات وتحليلاته لوجهات نظر فقهاء الإسلام. (انظر: السَّيد علي الحسيني الخامنئي، لاتا؛ ٤٣) كما أكَّد سماحته على ذلك ضمن إجابة استفتاءات وُجِّهت إليه. (الخامنئي، ١٣٨٤ ش، ٦٩-٦٧) وقد أدَّى هذا الموقف إلى فتح صفحة جديدة في تاريخ الصَّابِئَة المندائيين في إيران.

اليوم يؤدِّي أبناء هذه الطائفة طقوسهم الدِّينية وأعمالهم الاجتماعية في المجتمع الخوزستاني على أرضية أكثر حرِّية من أية حقبة زمنية سابقة. وليست هناك أية معلومات دقيقة عن عدد الصَّابِئَة المندائيين في إيران، إلاَّ أنَّ المصادر الحديثة تدلُّ على أنَّ عددهم في إيران أكثر منه في المنطقة الجنوبية من العراق. فإنَّ شادگان، وماهشهر، وسربندر، وحميدي، وسوسنگرد، وبستان، وهويزة، وآبادان وخرمشهر هي مراكز استقرارهم في خوزستان. (انظر: شهرية بيت مندا، شهر آذر، ١٣٨٠، ٣). وبناءً على تقرير كورت رودلف في كتابه المندائية فقد كان عدد المندائيين في إيران سنة ١٩٧٨م (٦٢٠٠) شخص. (انظر:

١٣٤٣ ش، ص ٦٠٦).

٣- تعلم المندائيون الخوزستانيون من كتاب «دراسة اديبيا» ككتاب مقدس مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع). وكل نص من هذا الكتاب يُستهل «باسم الحي العظيم» وفصل منه يختص بتوحيد رب العالمين وهو الفصل الذي تُذكر فيه عبارة «الحي الأزلي» (دراشه اديبيا، ٢٠٠١م، ٤) وهذا الكتاب يتطرق أيضاً إلى الوعد والوعيد (الآخرة) (السابق، ١٩٨ و ١٣٠).

٤- تختص أربع وعشرون صفحة في كتاب «كتر ربا» ثاني كتب المندائيين الخوزستانيين المقدس بالتوحيد وخلقة آدم والملائكة بيد الله تعالى. وهو الكتاب الذي يعتقدون أنه نزل على آدم (ع). وتُستهل كل سور هذا الكتاب أيضاً بهذه العبارة «باسم الحي العظيم». ويختص أول تسيح كتاب كترار «بالتوحيد» وفي هذا الفصل يُذكر الله فيه بالصفات التالية: الحي، البصير، القدير، العليم، الحكيم، الأزلي القديم... (سبهاني، ١٤٢٧ ق، ٣٠٩، كتر ربا، لا تا، ١) وايضاً ثلث آيات كتر ربا حول المعاد والدار الآخرة (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩).

إن تمتع المندائيين الخوزستانيين لهذين الكتابين المقدسين اللذين يُذكر فيهما التوحيد والمعاد وعدّه كجزء من أصول اعتقادهم هو دليل على توحيدهم ومطابقة كلمة «الصائبين» في القرآن الكريم لهم.

٥- جاء في نصوصهم المقدسة، فلسطين، منشأهم ومبعث يحيى (ع) وتعميد عيسى (ع) والمندائيين كان على يده. (دراشه اديبيا، ٢٠٠١، ٩٩-٨٥ و ٨٢-٨٠) وبناء على هذه النصوص، فالصائبون يعتقدون أنّهم قاموا من فلسطين وأنّ يحيى (ع) هو نبئهم (مجلة بيت مندنا الشهرية اريدهشت، ١٣٩٠، ٨-٧) ويعتقدون

للتعاليم الدينية وإعداد منشورات داخلية ونشر كتب دينية بين أبناء الطائفة وإعداد أراضٍ للمقبرة، وغرس فسائل للشجر وبناء أحواض مياه في مندى لمراسيم التعميد. (انظر: مجلة بيت مندنا الشهرية، دي ١٣٨٥، ١٢) وفي الوقت الحاضر يعتبر الصابئة المندائيون أقلية دينية يمارس أبنائها حياتهم الدينية والاجتماعية في ظل الجمهورية الإسلامية في إيران كما يتقبلهم الخوزستانيون بوصفهم فئة دينية مرحباً بها تعيش معهم باحترام وإعزاز.

أدلة تطبيق اصطلاح «أهل الكتاب» الفقهي على الصائبين المندائيين الخوزستانيين

١- اعتقادهم القوي والعميق على أنّ كلمة «الصائبين» الدالة عليهم هي بمعنى «الغسل في الماء او التعميد» ولا تعني «الخروج من دين إلى دين آخر». (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وهذا المفهوم الأول في الأصل هو تلك اللغة القرآنية التي جعلت الصابئة جزءاً من أهل الكتاب.

٢- «التعميد» و«الغسل والغسل في الماء» أعلى وأفخم المراسيم المذهبية (مجلة بيت مندنا، مهر ١٣٨٢، ٣) وبرز الأعمال الدينية للصائبين المندائيين الخوزستانيين (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وفي هذه المناسبة يعمد الصائبون الخوزستانيون في المراسيم الخاصة بالمندي (معبد الصائبين) على وضع أوالي كـ: «القدر، الصوان، القدح (الطاسة)، الملعقة، السكين، المقلاة... ويظمشون (يغسلون) بعض المآكل كـ: «العنم، القمح، السمسم، الزبيب، الجوز، الرمان، جوز الهند، التمر (مجلة بيت مندنا، مهر ١٣٨٢، ص ٢) هذا العمل أي التعميد يطابق تقرير ابن النديم حين يُعرف التعميديين بأنهم فئة من أهل الكتاب. (ابن ندیم،

بهذا كأصلٍ ديني مهم اعتقاداً راسخاً. (ترميدا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وبناءً على هذا الأصل نستطيع أن نعدَّ هذه الفئة التي لها صلة تاريخية عميقة مع التعميديين الفلسطينيين، فرقة من أهل الكتاب والتي دُكرت في القرآن الكريم.

خاتمه

دراسة المصادر التاريخية تبين لنا أن مصطلح الصَّابئة أُطلق غالباً في العصور المتقدمة (القرن الثالث الهجري) على عبدة النُجُوم الحُرَّانيين شمالي بلاد ما بين النهرين أكثر منه على الصَّابئة التعميديين أتباع النبي يحيى (ع). وأمَّا ذكره في القرآن فيعدُّ قاعدةً فقهيةً لاعتبار أصحاب هذه الديانة من أهل الكتاب وينطبق تماماً على المندائيين من الصَّابئة. إذاً فهمُ الكتاب المسلمين للمصطلح بمعنى (المشركين عبدة النُجُوم) لا يتوافق مع المفهوم القرآني. وعدمُ التوافق هذا ناجم عن التباين بين الدَّلالتين العربية والآرامية للكلمة، لأنَّ دلالتها العربية التي استند إليها الكتاب المسلمون، هي (الميل عن دين إلى آخر)، في حين يبدو أن القرآن قد اختار الدَّلالة الآرامية أي (التعميد) و(الإغتسال في المياه). والسبب الذي يدلنا على هذا الاعتقاد هو أن القرآن جعل الصَّابئة من أهل الكتاب، إذاً لا يجوز أن يقصد بلفظة الصَّابئة الفريق الثاني منهم أي عبدة النُجُوم، علاوة على هذا فإنَّ الفريق الأوَّل أي المندائيين المقصودين في القرآن كانوا معروفين لعرب شبه الجزيرة لأنَّهم استقرُّوا في مناطق تقع جنوبي بلاد ما بين النهرين وليس منطقة حرَّان شمالي البلاد.

وأمَّا الجماعات الدينية الواردة أسماؤهم في النصوص الإسلامية ك (العباديين) و(المعمدان) فقد ظنَّها الكتاب المسلمون عن طريق الخطأ جماعات مسيحية، بينما هي

ليست إلا الصَّابئة المندائيون أنفسهم. لذا إن أمعنا النظر في ما أورده ابن التَّدِم دون الآخرين عن أن المغتسلة شعبة من الصَّابئة تقطن المناطق الجنوبية من بلاد ما بين النهرين لتبين لنا أن روايته في سبيل المعرفة الأثروبولوجية أقرب الروايات إلى الواقع والمنطق وأمَّا تأثر الصَّابئة بالديانات المختلفة الأخرى كالزَّرادشتية والمناوية واليهودية والمسيحية، فقد كان سبباً في تحبُّط الموقف الفقهي للفقهاء المسلمين، إذ عدُّوهم أحياناً من المشركين وثانيةً من اليهود وثالثةً من الجوس ورابعةً من النَّصارى وخامسةً من أهل الكتاب عامَّة. وهم اليوم في خوزستان أقلية دينية تشكِّل إلى جانب مسلمي الإقليم جزءاً من المواطنين المنتمين للقطر الإيراني. وهم يعتبرون أنفسهم في خوزستان تلك الصَّابئة التي أُدرجت في القرآن ضمن أهل الكتاب ويسمُّون أنفسهم "المندائيين" أو "الصَّابئة المندائيين" وضمَّهم آية الله العظمي الخامنئي (مدظله) قائد الثورة الإسلامية في زُمره من يعرفون في المجتمعات المسلمة بأهل الكتاب من أصحاب الديانات السَّماوية الأخرى دون الإسلام.

إنَّ أبناء هذه الطائفة في الأهواز - وهي مركزهم المعنوي - وفي مناطق أخرى من خوزستان يجيئون حياةً دينية واجتماعية وادعة بمارستهم لطقوسهم بكل حرية ومشاركتهم في النِّشاطات الاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

١. كان الآراميون موجةً ثالثةً بعد الأموريين والكنعانيين من السَّاميين الذين هاجروا من شبه الجزيرة نحو العراق وسوريا في القرن الرَّابِع عشر قبل الميلاد. وقد أُنهي الآشوريون حياتهم السَّياسية سنة ٧٣٢ ق م، إلا أن لغتهم قد انتشرت في منطقة الشَّرْق الأدنى دون تأثر باللُّغات الأخرى. وكان تجَّارهم سبباً لانتشارها. وهي

القرآن الكريم. (ترميذا سالم، مصاحبه، ٩٠/٣/١٩).
 ٧. "مندي" معبد الصابئة: كانت تلفظ قديماً "مندا" مفردةً،
 (انظر: عزيز سباهي ١٩٩٦ م. ٦٥) مشتقةً من الكلمة
 الآرامية "يادا" التي تعني المعرفة. (فيليب حتي، ١٣٨٠،
 ٤٥٥) يسميه أيضاً صابئة خوزستان "اشختنا"، (مجلة
 بيت مندا، مهر ١٣٨٢؛ ٢) وهي مشتقةً من "مشكنا"
 أي البيت. (عزيز سباهي، ١٩٩٦ م، ٦٥) كان مندي
 في الأصل غرفة صغيرة تبني من القصب والطين الأحمر
 والسقف المثلث الشكل ويوضع فيه حوض للتعميد
 تجري فيه مياه النهر من المدخل إلى المخرج، (مجلة بيت
 مندا، مهر ١٣٨٢، ٢) لأن الصابئة يعتقدون خلافًا
 للتصاري بالتعميد في مياه جارية فلا يجيزون المياه
 الرائدة.
 ٨. المقامات الروحانية للصابئة المندائيين من أعلاهم إلى
 أدناهم: رباني، ريشاد إمام، كَنزورا، اشكندا ترميدا.

المصادر والمراجع

الف (المصادر

[١] القرآن الكريم

[٢] دراشه اديبيا (٢٠٠١م)، ترجمه من اللغة المندائية

الاراميه إلى اللغة العربية امين فعييل حطاب، بغداد،
 لامكان.

[٣] كَتَرا ربا (لا تا)، ترجمه هيئت مترجمين كَتَرا ربا،
 أهواز، نشر جمعية صائبي أهواز.

[٤] ألبرتين، گاور (١٣٨١ش)، تاريخ خط، ترجمه
 عباس مخبر، طهران، نشر مركز

[٥] ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (١٤٢٦ق)، تلبيس
 ابليس، تحقيق: السيدالجميلي، بيروت، دار الكتاب
 العربي.

تعدُّ فرعاً من اللغات السَّامية في الشمال الغربي من شبه
 الجزيرة. وأصبحت منذ حوالي عام ٥٠٠ ق. م. لغة
 لجميع الشعوب القاطنة منطقة الهلال الخصيب.
 وأدخلت في عهد داريوس الأول الأخميني (٤٨٥ -
 ٥٢١ ق. م) ضمن الدوائر الحكومية بوصفها خطأً
 إدارية - حكومية. (انظر: ١٤٢٨ق، ١٤٠ - ١٣٩)
 ٢. أفسُس: هي إحدى المدن المتاخمة لطرسوس (جنوبي
 تركيا الحالية)، ويقال أنها مدينة أصحاب الكهف
 (انظر: ياقوت الحموي، (لاتا)، ١٨٧/١)

٣. سورة البقرة الآية ٦٢. / سور المائدة الآية (٦٩) /
 سورة الحج الآية (١٧).

٤. حرَّان: كانت مدينة كبيرة شهيرة في منطقة الجزيرة،
 شمالي العراق، وأمَّا قصبه ديار مضر التي تقع بينها وبين
 الرُّها فهي تبعد عنها مسافة يوم. وكانت واقعة على
 طريق الموصل والشام وبلاد الرُّوم. (انظر: ياقوت
 الحموي، (لاتا) ٣/١٣١)

٥. الحويزة: مدينة في خوزستان بناها ديبس بن عفيف
 الأسدي أيام الطائع لله العبَّاسي (٣٨١ - ٣٦٣ق). في
 منطقة تقع بين واسط والبصرة والأهواز (م.ن، ٣
 /٢٠٠)

٦. قبل ذلك أيضاً (في سنة ١٩٧٥م) أحاب المرجع الديني
 سماحة آية الله الخوئي (ره) على استفتائية المحكمة
 الشرعية في منطقه كرخ من ضواحي بغداد وصرَّح بأنَّ
 الصابئين المندائيين هم جماعة من أهل الكتاب والتي
 ذكرها الله تعالى في القرآن. (سند استفساريه وزارة
 العدل، ١٩٧٥م) وأيضاً على حَسَب ما ذَكَرَهُ ترميدا
 سالم، بأنَّ سماحة المرحوم آية الله كرمي (ره) وهو من
 العلماء البارزين في مدينة الأهواز، قد أيدَ المندائيين
 الخوزستانيين بأنهم فرقة أهل كتاب وقد ذُكرت في

- [٦] ابن خردادبه (١٨٨٩ م)، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر.
- [٧] ابن العبري (١٣٧٧ش)، مختصر تاريخ الدول، ترجمه عبدالمحمد آيتي، طهران، نشر علمي وفرهنگي.
- [٨] ابن الندم (١٣٤٣ش)، الفهرست، ترجمه: رضا تجدد، نشر ابن سينا.
- [٩] أبوخليل، شوقي (١٤٢٥ق)، في التاريخ الإسلامي، بيروت، دارالفكر المعاصر.
- [١٠] الاصبهاني، حمزه بن حسن (١٣٤٦ش)، سني ملوك الأرض والانبيا، ترجمه جعفر شعار، طهران، نشر مركز فرهنگي ايران.
- [١١] أمين، أحمد (لاتا)، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي.
- [١٢] الانصاري، مصطفي (١٣٨٤ش)، تاريخ خوزستان، طهران، نشر شادگان.
- [١٣] البلاذري، أبوالحسن (١٤٢١ق)، فتوح البلدان، بيروت، منشورات مكتبة الهلال.
- [١٤] البيروني، أبوريحان، (لاتا) الأثار الباقية عن القرون الخالية، بيروت، دار الفكر.
- [١٥] شوشتری، محمد علی امام (١٣٣١ش)، جغرافیایی تاریخی خوزستان، نشر امیرکبیر.
- [١٦] جُر، خليل (١٣٨٦ش)، المعجم العربي الحديث، ترجمه سيد حميد طبيبيان، طهران، نشر امیرکبیر .
- [١٧] الجوزي، سعيد الخوري (١٤٠٣ ق)، أقرب الموارد، قم، نشر مكتبة آيت الله العظمي المرعشي النجفي.
- [١٨] حتي، فيليب (١٣٨٠ش)، تاريخ عرب، ترجمه: ابوالقاسم پابنده، طهران، نشر علمي فرهنگي.
- [١٩] حسيني شيرازي، سيد مهدي (١٣٨٤ش)، عقيدة وشريعت صابئين، ترجمه: كاظم پور كاظم، سوسنگرد، نشر سرزمين خوز.
- [٢٠] الحموي، ياقوت (لاتا)، معجم البلدان، تقديم محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- [٢١] الحميدي، محمد بن عبدالمنعم (١٩٨٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، مكتبة لبنان.
- [٢٢] الخامنئي، آيت الله العظمي سيد علي (لاتا)، تحقيق في حكم الصابغة، (لام ط).
- [٢٣] الخامنئي، آيت الله العظمي سيد علي (١٣٨٤ش)، رسالة أجوبة الإستفتاءات، (لا مكان)، منشورات المهدي العالمي.
- [٢٤] الدينوري، أبوحنيفه (١٣٦٤ش)، الأخبار الطوال، ترجمه: محمود مهدي دامغاني، طهران، نشر ني.
- [٢٥] ژرژ، ژان (١٣٨٢ش)، تاريخ مصور الفباء، ترجمه: اكبر تبريزيان، طهران، نشر علمي فرهنگي.
- [٢٦] سباهي، عزيز (١٩٩٦م)، أصول الصابغة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، بيروت، دارالمدى للثقافة والنشر.
- [٢٧] سباهي، رؤوف (١٤٢٧ق)، الصابغة المندائية في ايران، بيروت، دارالحجة البيضاء.
- [٢٨] سليم، أحمد أمين (١٣٨٢ش)، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، دار النهضة العربية.
- [٢٩] شامي، يحيى (١٩٩٣م)، الشرك الجاهلي والالهة المعبودة قبل الاسلام، بيروت، دارالفكر العربي.
- [٣٠] الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (١٤٢٢ق)، الملل والنحل، تقديم صدقي جميل العطار، بيروت، دارالفكر.
- [٣١] الطبري، محمد بن جرير (١٤٢٢ق)، بيروت، دار الكتب العلمية.
- [٣٢] العربستاني، مهرداد (لاتا)، تعميدان غريب،

- طهران، نشر افكار.
- [٣٣] العلوي، محمد الحسيني (١٣٨٦ش) بيان الأديان، تحقيق محمد دبیرسیاقي، طهران، نشر روزنه.
- [٣٤] العهد العتيق والجديد (١٣٨٠ش)، ترجمه فاضل خان همداني، طهران، نشر اساطير.
- [٣٥] كريستن سن، آرتور (١٣٧٨ش)، ايران در زمان ساسانيان (إيران في زمن الساسانيين)، ترجمه: رشيد ياسمي، طهران، نشر صداي معاصر (الصوت المعاصر).
- [٣٦] الكلبي، هشام بن محمد (١٣٨٥ش) الاصنام، ترجمه محمد رضا جلالی نائینی، طهران، نشر سخن.
- [٣٧] متز، آدام (١٣٧٧ش)، تمدن اسلامي در قرن چهارم هجري (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، ترجمه: عليرضا ذكاوتي، طهران، نشر امير كبير.
- [٣٨] المسعودي، علي بن الحسين (١٣٧٨ش)، مروج الذهب، ترجمه محمد ابراهيم آبي، طهران، نشر علمي و فرهنگي.
- [٣٩] المسعودي، علي ابن الحسين (١٤٢١ق)، التنبيه والاشراف، بيروت، دار مكتبة الهلال.
- [٤٠] ناس، جان (١٣٨١ش)، تاريخ جامع اديان، ترجمه: علي اصغر حكمت، طهران، نشر علمي و فرهنگي.
- [٤١] وجددي، محمد فريد (١٩١٧ م)، دائرة المعارف
- القرن الرابع عشر، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر.
- [٤٢] هاكس، جيمز، (١٣٤٩ش) قاموس كتاب المقدس طهران، مكتبة طهوري .
- [٤٣] يعقوبي، ابن واضح (١٣٧٤ش)، تاريخ يعقوبي، طهران، نشر علمي و فرهنگي
- [44] ENCYCLOPAEDIA LOOKLEX (2011), Mandeans, <http://looklex.com>
- ب - نشریات
- [٤٥] بيت مندا، (آذر ١٣٨٠ش)، العدد ٥، السنة الثالثة.
- [٤٦] ———، (آذر ١٣٨١ش)، العدد ١٧، السنة الثالثة.
- [٤٧] ———، (مهرماه ١٣٨٢ش)، العدد ٢٧، السنة الثالثة.
- [٤٨] ———، (دي ١٣٨٥ش)، العدد ٦٦، السنة السابعة.
- [٤٩] ———، (تير ١٣٨٨ش)، العدد ٩٦، السنة السابعة.
- [٥٠] ———، (ارديبهشت ١٣٩٠ش)، العدد ١١٨، السنة الحادية عشرة.
- [51] Kurt Rudolph (2001, I), MANODAEANS
- [52] <http://www.gnosis/library/Mandaeans>

صابئين مندائي در تاريخ، از فلسطين تا ايران

بهادر قيم^١

تاريخ وصول: ٨٩/٩/٨

تاريخ پذيرش: ٩٠/٧/١٦

صابئين مندائي با پيشينه تاريخي عميق، از گروه‌هاي شناخته شده در فرهنگ و تمدن اسلامي بودند. قرآن، صابئين مندائي را در رديف اهل كتاب قرار داده است. حوادث تاريخي مرتبط با حيات ديني و اجتماعي صابئين در سرزمين فلسطين كه در سنت شفاهي و متون مقدس صابئين مندائي ذكر آن آمده، مي نمايد كه سرزمين فلسطين خاستگاه اوليه صابئين بود.

مهاجرت صابئين به سوي بين النهرين تابعي از عوامل بيروني - تهاجم قواي خارجي - و عوامل دروني - درگيري با يهود - بوده است. تسامح ديني حكومت‌هاي هخامنشي و اشكاني، در استمرار حيات ديني صابئين در بين النهرين به عنوان جزيي از قلمرو امپراطوري هخامنشي تا ساساني، مؤثر بوده و مهاجرت آنها را به سوي مناطق جنوب غربی ايران - خوزستان - تسهيل نمود. صابئين از ابتدای ورود به قلمرو جغرافيايي ايران در خوزستان تاكنون، حيات ديني و اجتماعي پرفراز و نشيب، توأم با عسر و يسر سپري كردند. اما در سال هاي اخير با اعلام اهل كتاب بودن اين گروه ديني توسط حضرت آيت الله خامنه‌اي (مدظله)، فصل جديدي از حضور تاريخي صابئين در ايران گشوده شد و باعث گرديد تا حيات ديني و اجتماعي اين گروه در فرآيندي آرام سير نمايد. اين يافته نگاري با رويكردي صرفاً تاريخي و با بررسي منابع تاريخي و جرح و تعديل آنها، سعي دارد تصوير واضحي از صابئي گري و بازشناسي مندائي‌ها از ستاره پرستان، ارائه دهد.

واژگان كليدي: صابئين مندائي، حضرت يحيي (ع)، فلسطين، بين النهرين، خوزستان، اهل كتاب.

Mandae Saebeen in History, from Palestine to Iran

Bahador Ghayem¹

Received: 2010/11/9

Accepted: 2011/10/8

Abstract

The Mandaee Saebeen, with a deep historical background, was among the known groups in Islamic culture and civilization. The Qur'an has placed them among the People of the Book. The historical events related to the Saebeen's religious and social life in the Palestinian territories that are mentioned in the oral tradition and Holy Scriptures of Mandaee Saebeen shows that the Palestinian territory was their early origin. Their migration toward Mesopotamia had been under the influence of external factors – foreign invasion– as well as internal factors – the conflict with the Jews. The religious tolerance of Achaemenid and Parthian governments was effective in the continuity of religious life of Saebeen in Mesopotamia as a part of Achaemenid to Sassanid Empire and ameliorated their immigration to the south-west parts of Iran, Khuzestan. Saebeen, from their first entry to the geographical domain of Iran in Khuzestan up to now (2010 AD), have experienced religious and social ups and downs with hardships and openings. However, in recent years, with the declaration of Ayatollah Khamenei that they are among the People of the Book, there opened a new chapter of Saebeen's historical presence in Iran and provided an easy course to their religious and social life. This study, with a purely historical approach, and with a consideration of historical sources, tries to give a clear picture of Saebeen and differentiate them from star-worshippers.

Keywords: Mandaee Saebeen, Imam Yahiya, Palestine, Mesopotamia, Khuzestan, People of the Book.

1 . Assistant Professor, Shahid Chamran University, Ahvaz.

Ghayem.b@scu.ac.ir